ليلى المريضة بالعراق

للدكتور زكي مبارك

— ٤ —

— ضابط في الجيش العراقي أبوه من مصر وأمه من لبنان ؟ كيف اتفق ذلك يا ظمياء ؟

— لذلك يا سيدي تاريخ ...

— انتظري قليلا ... قبل أن ندخل في تاريخ ليلى مع الضابط عبد الحسيب ؛ أحب أن أسأل : هل كان حبها لذلك الضابط أول حب ؟

— نعم يا سيدي أول حب

— منذ كم سنة أحبت ذلك الضابط ؟

— منذ اثني عشر عاماً

— تذكري يا ظمياء أنك قلت إن ليلى في حدود الأربعين فهل يُعقل أن تظل عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين ؟

— نعم يا سيدي ، وما أقوله تشهد به الست جميلة ، وتعرفه الخالات والعمات والجارات في شارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغواني

— ولكن هذا غير معقول ، فما يمكن أن تظل فتاة عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين !

— أنت يا سيدي غريب بهذه المدينة ولا تعرف النساء في بغداد

— بغداد في عينك يا ظمياء ! وهل بغداد تحمي المرأة من أن تكون لها عين تنظر وقلب يميل ؟

— أؤكد لك يا سيدي أن ليلى لم تحب أحداً قبل الضابط عبد الحسيب

— ولكن كيف اتفق أن تظل بلا زوج إلى الثامنة والعشرين ؟

— لقد حفيت أقدام الخاطبين وهي ترفض بلا سبب معقول

« فدونت في مذكرتي أن الفتاة التي ترفض الزواج ، ويطول بها ذلك ، لا بد أن تكون أصيبت بنوبة حب ، ولا بد أن يكون ذلك الحب صور لها خولة الرجل في صورة فلسفية أو أدبية ، ولكن هذا الحب سيظل مجهولاً ما دامت ليلى تكتمه ، وما دام النساء اللائي يحطن بها يتمتعن بقسط وافر من الغفلة ، على قلة ما ترى من النساء الغافلات . ويظهر أن موقفي سيكون دقيقاً في المؤتمر الطبي ، لأن المؤتمرين سيسألون عن الصور الفلسفية والأدبية لفحولة الرجال في أخيلة النساء ، ولكن لا بأس فهي فرصة طيبة لشرح آراء شيث بن عربانوس في هذه القضية . على أني سأجد مفاتيح هذا السر المدفون حين أقف على قصة الضابط عبد الحسيب ، وربما كان من الخير أن أرجع إلى البحث الممتع الذي نشره الدكتور عبد الواحد بك الوكيل عن أثر الحب في الأمراض العصبية »

— دكتور ! ماذا تكتب ؟

— اسمعي يا بلهاء

— هذا جزاء من يصنع الجميل !

— أستغفر الله ! إنما أردت أن أقول اسمعي يا ظمياء . أنا يا بنيتي أقيد ملاحظات تنفعني في مداواة ليلى ؛ ومرضها كما تعلمين عصيب ، وأحب أن أستعد لمداواتها أتم استعداد ، والله المعين

« ولكن ألا يمكن أن يقال إن ليلى مرضت في صباها بالنفوة الروحية ، ولم تفق إلا في الثامنة والعشرين ؟ ومن يصدق حديث النفوة الروحية ؟ لقد كنت الطبيب الوحيد الذي استكشف هذا المرض الخبيث ، وألقيت عنه محاضرة في باريس بعد أن أديت الامتحانات النهائية في الطب ، ثم نشرت خلاصة بحثي في المجلة الطبية المصرية ، ولم أظفر ، وا أسفاه ، بغير السخرية يواجهني بها زملائي في مصر ، ويراسلني بها أساتذتي في باريس »

— دكتور ، ألا ترى كيف أقفقف من البرد ؟

— اسمعي يا بلهاء ، فما عندي لك دفء

« وما الذي يمنع من انتهاز هذه الفرصة الثمينة ، فرصة انعقاد المؤتمر الطبي في بغداد ، لاعلان نظرية النفوة الروحية بطريقة دولية ؟ إن الشواهد تحت يدي ، فأنا أعرف ناساً بأعيانهم انخرطوا في سلك الكهنوت وهم شبان ، وعاشوا عيش الطهر والعفاف إلى سن الثلاثين . ثم استيقظت أرواحهم فجأة فهربوا من الكنائس والصوامع وأقبلوا على الدنيا إقبال المتهومين ، ومنهم صديق فلان الذي عرفته في حانات مونمارتر سنة ١٩٢٧ وصديق

فلان الذي عرفته في مرقص الكوبول سنة ١٩٣٣ ، ولكن كيف أقول هذا الكلام في المؤتمر الذي يعقد في بغداد وأنا أشتغل بالتعليم في بغداد ؟ الخطب سهل : أنا أتكلم في المؤتمر باسم الدكتور مبارك الطبيب ، والناس جميعاً يعرفون أني أحرزت الدكتوراه في الطب قبل أن أحرز الدكتوراه في الآداب ».

— دكتور ، أروح ؟

— وين تروحين ؟ اجلسي يا بلهاء

— أنا اسمي ظمياء

— اجلسي يا ظمياء

« ولماذا أفضح نفسي في المؤتمر بأحاديث مونمارتر وموبارناس؟ لماذا لا أكتفي بالشواهد التي أعرفها في مصر ؟ ألم يكن صديقنا فلان من أعف الناس في صباه ؟ ألم يكن يحوقل ويستغفر ويسترجع حين يطرق أذنيه بيت من النسيب ؟ رحمة الله على أيامه الطيبات ، أيام كنا نتقرب إلى الله بتقبيل يمناه ! فمن يصدقني اليوم إذا قلت إنه كان في صباه فتى عفيفاً ؟ وكيف يصدقني الناس إذا ادعيت ذلك وهو اليوم ألطف ما جن وأظرف عربيد ؟ ! »

— دكتور !

— اخرسي يا بنت !

— شنو ؟

— ما أدري شنو ! !

« إن حال ليلى في جوهره يرجع إلى فرضين : الفرض الأول أن تكون رأت في مطلع صباها صورة مست شغاف القلب ثم اختفت تلك الصورة ، وظلت المسكينة تترقب ملامحها في أوجه الخاطبين بدون أن يتحقق لها رجاء ، فلما وقع بصرها على الضابط عبد الحسيب رأت فيه ملامح الحبيب الضائع فأقبلت عليه وقد استيقظ هواها القديم يقظة مرعبة ضجت لها بغداد ؛ والفرض الثاني أن تكون أصيبت بالنفوة الروحية ، ذلك المرض الخطر الذي تفردت باستكشافه والذي سيجعل لي مقام صدق في عالم الطب ، وقد عاشت المسكينة تحت سيطرة هذا المرض إلى أن بلغت الثامنة والعشرين ثم عوفيت فجأة ، فكانت عيناها الناعستان وابتسامتها الساحرة من نصيب الضابط عبد الحسيب »

— دكتور ! طال مقامي عندك ، وليلى ستقلق الظنون !

— أي ظنون يا ظمياء ؟

— قد تحسبك كالطبيب فلان الذي خربت عيادته بسبب امرأة ألمانية كانت تزوره في العشيات

— وأنت تلك الألمانية يا ظمياء ؟ ما هذا الغرور الفظيع الذي لا تخلو منه امرأة شوهاء !

« وهنا ضحكت المرأة جميلة ضحكة رجت أركان البيت »

— اعقلي يا ظمياء ! أنا رجل غريب ، والغريب يدخل سجن الفضيلة وهو راغم . فأنت في حماية هذا التخوف ، تخوف الغريب من قالة السوء . وسأعيش في بلدكم ما أعيش ، ثم أخرج باذن الله وأنا أبيض الصحائف وضاح الجبين

— هل معنى ذلك أني في أمان ؟

— في أمان يا ظمياء ، سبحان الله !

— أنت تهينني ! فأنا عندك فتاة شوهاء لا تهيج الغواية في قلوب الرجال !

« وهنا دونت في مذكرتي أن المرأة لا يسرها أن تكون في في أمان ، لأنها لا تكون في أمان إلا حين تزهد فيها القلوب . وأشهد أن ظمياء فتاة شريفة ، ولكن تغلب عليها نزعة الجنس ، فهي تحب أن يكون شرفها بفضل التصون ، ويؤذيها أن تصل إلى الشرف عن طريق الزهد ، الزهد فيما تدعيه لنفسها من حسن مرموق »

— دكتور ، أروح ؟

— وين تروحين ؟ حدثيني عن قصة ليلى مع الضابط عبد الحسيب

— كانت بداية القصة في سنة ١٩٢٦ حين ثار حزب الشعب على المرحوم عبد المحسن السعدون ، وكانت الجرائد العراقية أطنبت في وصف المعرض الزراعي والصناعي الذي أقيم في الجزيرة بالقاهرة في ذلك التاريخ ، وكانت ليلى ضجرت من ضجيج السياسة في بغداد فاستأذنت والديها رحمهما الله لترى ذلك المعرض علها تنسى ضجيج بغداد ، فرفض أبوها ، وشجعتها أمها ، والمرأة تغلب الرجل حين تشاء ، فلم ينتصف شهر آذار ، شهر الأزهار والرياحين ، إلا وليلى تطالع سفر الحياة على شواطىء النيل وطن مولاي الطبيب

« للحديث بقية »

زكي مبارك